التكامل المعرفي بين علوم القرآن والدرس العقدي عند علماء الغرب الإسلامي

منهج الإمام القرطبي في توجيه القراءات وأثره في اختياراته العقدية

بقلم

د/ حميد بن احماد أيت الحيان (*)

ملخص

يتضح من خلال عنوان هذا المقال الموسوم ب"منهج الإمام القرطبي في توجيه القراءات وأثره في اختياراته العقدية" إلى أن هذه المداخلة قائمة على محورين متكاملين، محور نظري يناقش منهج القرطبي في توجيه القراءات من خلال تفسيره الجامع لأحكام القرآن، عبر بيان يراعي خصائص القراءات الصحيحة، وما تحمله من معاني ودلالات، ومحور تطبيقي يبرز أثر ذلك في اختيارات القرطبي الكلامية...وتتغيا هذه الدراسة بيان أوجه التكامل المعرفي بين علوم القرآن -فن القراءات- والدرس العقدي عند علماء الغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: علوم القرآن؛ الدرس العقدي؛ توجيه القراءات؛ الغرب الإسلامي.

(*)أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض مراكش المغرب.
(hamidaitoulahyane@gmail.com)

المنارة للاستشارات

مهاد:

هو الإمام المفسر أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي[1]، ويعرف بالقرطبي دون غيره من أعلام قرطبة، فلا يطلق هذا اللقب إلا عُني به صاحب التفسير العظيم.

وتنوعت المصادر التاريخية المترجمة لهذا المفسر بين موسع ومختصر، غير أنها لم تف بالمطلوب ولم تغن عن طلب المزيد، خصوصا ما تعلق ببدايات حياته وموطن ولادته، وسيرته إبان التعلم والتحصيل، وتكاد تكون هذه التراجم والسير واحدة، إذ أنها تنهل من نفس المصادر التي ترجمت للقرطبي، والتي لم تحمل الكثير عن تفاصيل حياته وأسرته، خصوصا ما تعلق ببداياته ونشأته.

فالإمام القرطبي بقي مستور الحال، حتى بزغ نجمه وعلا شأوه، فلم تكن أسرته ذات علم ولا جاه، حتى يعرف منه الأصل والنسب، وإنما عرفت الأسرة به وبعلمه الغزير بعد نبوغه.

وخلف الإمام القرطبي شهرة واسعة وتراثا علميا عظيما، أرغم الباحثين والدارسين على الاهتمام بهذه الشخصية الفذة والعلم المميز، غير أن ندرة المعلومات عن جانب مهم من حياته، جعلهم ينصرفون إلى تللك النصوص تأويلا واستنطاقا إلى درجة المخاطرة والمجازفة، خصوصا ما تعلق بمكان ولادته وزمانه.

ويأتي على رأس التراث العلمي للإمام القرطبي كتابه "**الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن**" وهو الكتاب المعروف اختصارا والمشتهر على الألسن بتفسير القرطبي، ذكره في كتابه التذكرة مختصرا، يقول: "وقد بيناه في كتاب الجامع لأحكام القرآن من سورة آل عمران"[2]. كما أشار إلى العنوان كاملا بقوله:

المنارة للاستشارات

"وقد ذكرناهما مستوفاة في البروج في كتاب الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان"[3].

نسبه إليه جل المؤرخين، ويعتبرونه من أهم آثاره العلمية، وأنه ذو قيمة عالية بين كتب التفسير[4]. وقد أثنى عليه العلماء قديما وحديثا، وبوؤوه مكانة عالية بين كتب التفسير وشهدوا له بالموضوعية والدقة والجدة، يقول ابن فرحون: "وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ"[5].

وضع الإمام القرطبي لكتابه الجامع مقدمة تحدد منهج ومعالم تأليفه، وقد وسمه بالتعليق الوجيز، أراده أن يشمل نكتا من التفسير وسائر العلوم، وللرد على أهل الأهواء، "فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري وأستفرغ فيه منتي[6]، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيها ومبنيا ما أشكل منها، بأقوال السلف ومن تبعهم من الخلف"[7].

وتبرز هذه الديباجة التي قدمها المؤلف بين يدي كتابه المعالم الكبرى لتفسيره، والهدف من تأليفه، فقد أراد منه كتابا جامعا بين التفسير والتأويل ومبينا للأحكام، مستندا في ذلك كله على اللغة والشعر والقراءات وغيرها.

ويوضح هذا بجلاء موسوعية الإمام القرطبي، وحسن اطلاعه، وتنوع مصادره، فبالإضافة إلى مجالسة العلماء والأخذ عنهم مشافهة وسماعا، كان له أيضا شرف الإجازة من بعضهم، مما سيظهر أثره في كتبه ومؤلفاته، وأهمها الجامع لأحكام القرآن،

المنارة للاستشارات

الذي ملئ فقها ولغة ونحوا وأصولا وقراءات، ويكفيه شرفا أن كل من جاء بعده من المفسرين وغيرهم كان عيالا عليه.

ومن أهم العلوم التي اعتمدها القرطبي في تفسيره علم القراءات، وهو الفن الذي اشتهر بالأندلس واستوى سوقه فيها على يد عدد من الأعلام الأفذاذ، يقول المقري: "وقرئ القرآن في الأندلس بالقراءات السبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة"(8).

ومن أبرز أهل الأندلس في علم القراءات مجاهد العامري، ومكي بن أبي طالب، وأبو عمرو الداني وكذلك أبو القاسم الشاطبي، إذ اشتهرت كتبهم بين طلبة العلم حتى أصبحت الركيزة في علم القراءات.

أما الإمام القرطبي فقد حاز حظا وفيرا من علم القراءات من خلال تتلمذه على يد أبرز علماء الأندلس في هذا الفن في زمانه، وأقصد بذلك شيخه أبي جعفر أحمد بن أبي حجة القيسي القرطبي النحوي المقرئ الزاهد مقرئ متقدم، ونحوي محقق، ومحدث حافظ مشهور الفضل، من أهل الزهد والورع والتواضع، أقرأ القرآن والنحو، وأسمع الحديث بقرطبة، ثم خرج عند تغلب العدو عليها إلى إشبيلية، وولي القضاء والخطابة بها، وألف: "تسديد اللسان في النحو"، "والجمع بين الصحيحين"، وغير ذلك(9).

يعد ابن أبي حجة من شيوخ القرطبي الأوائل، أخذ عنه القراءات، وتلا عليه بالسبع في بلده، فقد "كان من كبار المقرئين في وقته، العارفين بعلم القراءات وصنعة التجويد"(10).

المنارة للاستشارات

ومما يدل على مكانته عند القرطبي، فزعه إليه عند فاجعته بوالده إذ يقول: "فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة"[11].وينقل القرطبي عن شيخه سماعاً في مواضع عدة في كتبه، مما يدل على ملازمته له، والجلوس بين يديه[12].

كما أن القرطبي أخذ عن بهاء الدين بن الجميزي الشافعي، علي بن هبة الله بن سلامة بن المسلم بن أحمد بن علي، الإمام العلامة مسند الديار المصرية، بهاء الدين أبو الحسن اللخمي المصري بن الجميزي الشافعي[13]، كان إماما في الحديث والفقه والقراءات والنحو، رفيع الجاه معظما عند الخاص والعام[14].

أولا: مصادر القرطبي من كتب القراءات في تفسيره الجامع.

اعتمد القرطبي في كتابه الجامع مجموعة من المصادر في فن القراءات، وذلك عند الحديث عن القراءات ونسبتها لقرائها، وعند التوجيه والاستدلال، وتميز منهج القرطبي بالتصريح غالبا بهذه المصادر وأصحابها وأهمها:

- كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي:

نقل القرطبي عن مكي بن أبي طالب في مواضع عدة وبعبارات متنوعة، كقال مكي، وحكى وأشار إليه، وقدره مكي، وغيرها من العبارات التي تدل على اطلاع القرطبي على مؤلفه والنقل منه.

ومن أمثلة ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

المنارة للاستشارات

(15) قال أبو علي: الرؤية في هذه الآية رؤية عين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد. قال مكي والمهدوي: يدل عليه "رأي العين"(16).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (17)، قال: وقرأ ابن كثير "ضيقا" بالتخفيف، مثل هين ولين لغتان، ونافع وأبو بكر "حرجا" بالكسر، ومعناه الضيق، كرر المعنى، وحسن ذلك لاختلاف اللفظ. والباقون بالفتح جمع حرجة، وهو شدة الضيق أيضا، والحرجة الغيضة، والجمع حرج وحرجات. ومنه فلان يتحرج أي يضيق على نفسه في تركه هواه للمعاصي، قاله الهروي. وقال ابن عباس: الحرج موضع الشجر الملتف، فكأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي التف شجره. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى، ذكره مكي والثعلبي وغيرهما(18).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾(19)، قرأ الأعمش وحمزة بنصب الفعل على أن تكون اللام لام كي. والباقون بالجزم على الأمر، فعلى الأول تكون اللام متعلقة بقوله:" وآتيناه" فلا يجوز الوقف، أي وآتيناه الإنجيل ليحكم أهله بما أنزل الله فيه. ومن قرأه على الأمر فهو كقوله: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ (20) فهو إلزام مستأنف يبتدأ به، أي ليحكم أهل الإنجيل أي في ذلك الوقت، فأما الآن فهو منسوخ. وقيل: هذا

المنارة للاستشارات

أمر للنصارى الآن بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإن في الإنجيل وجوب الإيمان به، والنسخ إنما يتصور في الفروع لا في الأصول. قال مكي: والاختيار الجزم، لأن الجماعة عليه، ولأن ما بعده من الوعيد والتهديد يدل على أنه إلزام من الله تعالى لأهل الإنجيل[21].

➢ الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي:

نقل القرطبي عن الفارسي وأثبت آراءه في كتابه الجامع، وبين موقفه في عدد من القضايا القرائية، وبين مذهبه فيها، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[22] أي اتخذتموه إلها من بعد موسى. وأصل اتخذتم ائتخذتم من الأخذ ووزنه افتعلتم سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين فجاء ايتخذتم فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفا في ياتخذ وواوا في موتخذ فبدلت بحرف جلد ثابت من جنس ما بعدها وهي التاء وأدغمت ثم أجلبت ألف الوصل للنطق... ومذهب أبي علي الفارسي أن" اتخذتم" من اتخذ لا من أخذ[23].

كما أنه أورد استدراكاته واختياراته وترجيحاته كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[24] قرأ الجمهور "ما ننسخ" بفتح النون، من نسخ، وهو الظاهر المستعمل على معنى: ما نرفع من حكم آية ونبقي تلاوتها، كما تقدم. ويحتمل أن يكون المعنى: ما نرفع من حكم آية وتلاوتها، على ما ذكرناه. وقرأ ابن عامر"نُنْسِخْ" بضم النون، من أنسخت الكتاب، على معنى وجدته منسوخا. قال أبو حاتم: هو غلط: وقال الفارسي أبو علي: ليست لغة، لأنه لا يقال: نسخ وأنسخ بمعنى، إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخا، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محمودا وبخيلا. قال أبو

المنارة للاستشارات

علي: وليس نجده منسوخا إلا بأن ننسخه، فتتفق القراءتان في المعنى وإن اختلفتا في اللفظ[25].

وقال أيضا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[26]، فبعد أن أورد الخلف القرائي فيها، قال: "ورجح أبو علي الفارسي قراءة تخفيف الطاء، إذ هو ثلاثي مضاد لطمث وهو ثلاثي"[27].

➢ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني:

أورد القرطبي آراء ابن جني في بعض القراءات نقلا عن كتابه، أو نقلا عمن حكى عنه، ومن أمثلة ذلك قول القرطبي في تفسيره: وقرأ الجمهور" فاجنح" بفتح النون، وهي لغة تميم. وقرأ الأشهب العقيلي" فاجنح" بضم النون، وهي لغة قيس. قال ابن جني: وهذه اللغة هي القياس[28].

كما أورد استحسانه واختياره لبعض القراءات دون غيرها كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[29] قراءة الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء. وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار وأبو زرعة بن عمرو بن جرير "بِأَرْبَعَةٍ شهداء". وفيه أربعة أوجه: يكون في موضع جر على النعت لأربعة، أو بدلا. ويجوز أن يكون حالا من نكرة أو تمييزا، وفي الحال والتمييز نظر، إذ الحال من نكرة، والتمييز مجموع. وسيبويه يرى أنه تنوين العدد، وترك إضافته إنما يجوز في الشعر. وقد حسن أبو الفتح عثمان ابن جني هذه القراءة وحبب على قراءة الجمهور[30].

المنارة للاستشارات

ثانيا: موقف القرطبي من القراءات المتواترة:

أ-ذكر القراءات المختلفة في الكلمة الواحدة مع عزو كل قراءة لقارئها:

يذكر القرطبي الخلف القرائي في الكلمة الواحدة، وينسب كل قراءة إلى قارئها، ومثالا على ذلك نصه على اختلاف القراء في قراءة "أأنذرتهم"، فقال: قرأ أهل المدينة وأبو عمرو والأعمش وعبد الله بن أبي إسحاق: "أأنذرتهم" بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، واختارها الخليل وسيبويه، وهي لغة قريش وسعد بن بكر.

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ: "أنذرتهم أم لم تنذرهم" بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن أم تدل على الاستفهام. وروي عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ:" أأنذرتهم" فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما.. وقرأ حمزة وعاصم والكسائي بتحقيق الهمزتين:" أأنذرتهم" وهو اختيار أبي عبيد، فهذه سبعة أوجه من القراءات، ووجه ثامن يجوز في غير القرآن، لأنه مخالف للسواد. قال الأخفش سعيد: تبدل من الهمزة هاء تقول: هأنذرتهم، كما يقال هياك وإياك "[31].

ب-الترجيح والموازنة بين القراءات:

بعد أن يذكر القرطبي القراءات الواردة في اللفظة، يعمد إلى الموازنة والترجيح بينها كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[32]، قرأ الجماعة "فأزلهما" بغير ألف، من الزلة وهي الخطيئة، أي استزلهما وأوقعهما فيها. وقرأ حمزة" فأزالهما" بألف، من التنحية، أي نحاهما. يقال: أزلته فزال. قال ابن كيسان: فأزالهما من الزوال، أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية. قلت: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنى، إلا أن قراءة الجماعة أمكن في المعنى[33].

المنارة للاستشارات

ومن ذلك أيضا اختياره لقراءة اليسع بلام واحدة مخففة، قال: وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم "واليسع" بلام مخففة. وقرأ الكوفيون إلا عاصما "والليسع"..وكذا قرأ الكسائي، ورد قراءة من قرأ "واليسع" .. والقراءة بلام واحدة أحب إلي، لأن أكثر القراء عليه[34].

ج-توجيه القراءات الواردة في اللفظة على المعاني اللغوية:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [35]، يقول القرطبي: قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على جهة الخبر عمن اتخذه من متبعي إبراهيم، وهو معطوف على "جعلنا" أي جعلنا البيت مثابة واتخذوه مصلى. وقيل هو معطوف على تقدير إذ، كأنه قال: وإذ جعلنا البيت مثابة وإذ اتخذوا، فعلى الأول الكلام جملة واحدة، وعلى الثاني جملتان. وقرأ جمهور القراء "واتخذوا" بكسر الخاء على جهة الأمر، قطعوه من الأول وجعلوه معطوفا جملة على جملة[36].

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [37]، يقول: قرأ نافع وابن كثير والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر "وصية" بالرفع على الابتداء، وخبره (لأزواجهم). ويحتمل أن يكون المعنى عليهم وصية، ويكون قوله: "لأزواجهم" صفة، قال الطبري: قال بعض النحاة: المعنى كتبت عليهم وصية، ويكون قوله "لأزواجهم" صفة، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله ابن مسعود. وقرأ أبو عمرو وحمزة وابن عامر "وصية" بالنصب، وذلك حمل على الفعل، أي فليوصوا وصية. ثم

المنارة للاستشارات

الميت لا يوصي، ولكنه أراد إذا قربوا من الوفاة، و"لأزواجهم" على هذه القراءة أيضا صفة. وقيل: المعنى أوصى الله وصية. "متاعا" أي متعوهن متاعا: أو جعل الله لهن ذلك متاعا لدلالة الكلام عليه، ويجوز أن يكون نصبا على الحال أو بالمصدر الذي هو الوصية، كقوله: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [38] والمتاع هاهنا نفقة سنتها[39].

ثالثا: موقف القرطبيّ من القراءات الشاذة:

أ-التصريح بشذوذ القراءة وبيان علة ذلك:

ينص القرطبي على شذوذ القراءة كما في قوله تعالى:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [40]، قال: مبشرين ومنذرين نصب على الحال، وأنزل معهم الكتاب اسم جنس بمعنى الكتب. وقال الطبري: الألف واللام في الكتاب للعهد، والمراد التوراة. وليحكم مسند إلى الكتاب في قول الجمهور، وهو نصب بإضمار أن، أي لأن يحكم، وهو مجاز مثل ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[41]. وقيل: أي ليحكم كل نبي بكتابه، وإذا حكم بالكتاب فكأنما حكم الكتاب. وقراءة عاصم الجحدري" ليحكم بين الناس" على ما لم يسم فاعله، وهي قراءة شاذة، لأنه قد تقدم ذكر الكتاب[42].

المنارة للاستشارات

وكذا في قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (43)، يقول: وكان ابن أمه وأبيه، ولكنها كلمة لين وعطف. قال الزجاج: قيل كان هارون أخا موسى لأمه لا لأبيه. وقرى بفتح الميم وكسرها، فمن فتح جعل "ابن أم" اسما واحدا كخمسة عشر، فصار كقولك: يا خمسة عشر أقبلوا. ومن كسر الميم جعله مضاف إلى ضمير المتكلم ثم حذف ياء الإضافة، لأن مبنى النداء على الحذف، وأبقى الكسرة في الميم لتدل على الإضافة، كقوله: "يا عباد". يدل عليه قراءة ابن السميقع "يا بن أمي" بإثبات الياء على الأصل. وقال الكسائي والفراء وأبو عبيد: "ابن أم" بالفتح، تقديره يا بن أماه. وقال البصريون: هذا القول خطأ، لأن الألف خفيفة لا تحذف، ولكن جعل الاسمين اسما واحدا. وقال الأخفش وأبو حاتم: "ابن أم" بالكسر كما تقول: يا غلام غلام أقبل، وهي لغة شاذة والقراءة بها بعيدة. وإنما هذا فيما يكون مضافا إليك، فأما المضاف إلى مضاف إليك فالوجه أن تقول: يا غلام غلامي، ويا بن أخي. وجوزوا يا بن أم، يا بن عم، لكثرتها في الكلام(44).

ب-رد القراءة الشاذة:

ففي قوله تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(45)، قرأ عروة بن الزبير، "ونادى نوح ابنها" يريد ابن امرأته، وهي تفسير القراءة المتقدمة عنه، وعن علي رضي

المنارة للاستشارات

الله عنه، وهي حجة للحسن ومجاهد، يقول القرطبي: إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لها، والله أعلم(46).

وفي قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ الفرقان: (61)، أي وقمرا منيرا ينير الأرض إذا طلع. وروى عصمة عن الأعمش "وقُمرا" بضم القاف وإسكان الميم. **وهذه قراءة شاذة** (47).

ويعلق القرطبي على قراءة عمرو بن قائد:" إياك" بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها. يقول: وهذه **قراءة مرغوب عنها**، فإن المعنى يصير: شمسك نعبد أو ضوءك، وإياة الشمس (بكسر الهمزة): ضوءها، وقد تفتح(48).

ج-توجيه القراءة الشاذة:

ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾(49)، قرأ الجمهور برفع تسأل، ويكون في موضع الحال بعطفه على "بشيرا ونذيرا". والمعنى إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول. وقال سعيد الأخفش: ولا تسأل (بفتح التاء وضم اللام)، ويكون في موضع الحال عطفا على" بشيرا ونذيرا". والمعنى: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير سائل عنهم، لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم. هذا معنى غير سائل. ومعنى غير مسئول لا يكون مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: (ليت شعري ما فعل أبواي). فنزلت هذه الآية، وهذا على قراءة من قرأ" ولا تسأل" جزما على النهي، وهي قراءة نافع وحده، وفية وجهان: أحدهما: أنه نهي عن السؤال عمن عصى وكفر من

المنارة للاستشارات

الأحياء، لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان، وعن المعصية إلى الطاعة. والثاني- وهو الأظهر، أنه نهي عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته، تعظيما لحاله وتغليظا لشأنه، وهذا كما يقال: لا تسأل عن فلان! أي قد بلغ فوق ما تحسب. وقرأ ابن مسعود "ولن تسأل". وقرأ أبي "وما تسأل"، ومعناهما موافق لقراءة الجمهور، نفى أن يكون مسئولا عنهم(50).

فالقرطبي يعمد إلى توجيه القراءة الشاذة وفق ما تقتضيه الأصول اللغوية والمعاني، حتى تكون موافقة لما عليه قراءة الجمهور.

المحور الثاني :

أثر القراءات في الدرس العقدي عند القرطبي

واختياراته العقدية: " نماذج تطبيقية "

عقيدة الإمام القرطبي عقيدة سنية أشعرية، فهو ينتصر لمذهب "أبي الحسن الأشعري" وآرائه ضد المعتزلة وغيرهم(51)، بل إن القرطبي يؤكد انتماءه إلى الأشاعرة أهل السنة والجماعة في كثير من المواقع من تفسيره، يستشهد بأقوالهم في مؤلفاته، ويدافع عن آرائهم ويعلي من قدرهم، ويرد على مخالفيهم من المعتزلة والخوارج والروافض وغيرهم.

وللقراءات في الاختيارات العقدية للقرطبي أثر جلي يظهر في عدد من المسائل العقدية التي خالف فيها الأشاعرة غيرهم من الفرق الكلامية كمباحث الإلهيات والأسماء والصفات والغيبيات.

أ- أثر القراءات في إشكالية الاسم والمسمى:

هذه مسألة من المسائل الكلامية الحادثة التي وقع حولها خلاف كبير وجدال كثير، وهي لا تقل في أهميتها عن مسألة "القرآن مخلوق أم غير مخلوق"، فلم تعرف هذه

المنارة للاستشارات

المسألة إلا بعد انقضاء عصر الصحابة والتابعين، حتى عدها بعضهم من البدع المحدثة التي وجب التوقف فيها، أما علماء السنة فقد اضطروا إلى الخوض فيها، وبيان وجه الحق من الأقوال، ورد الباطل منها(52).

قال الإمام القرطبي: تكلم العلماء في الاسم والمسمى والتسمية والوصف والموصوف والصفة، وقد أنكر الكلام في هذا كثير من الفقهاء وليس إنكارهم لذلك وجه، إذ هو كلام على معنى الكتاب والسنة على ما نبينه(53).

ولقد كثر الخوض والتنازع في هذه المسألة وتشعبت فيها الطرق والأقوال، وزاغ عن الحق أكثر الفرق، كما يورد الغزالي: "فمن قائل إن الاسم هو المسمى ولكنه غير التسمية، ومن قائل إن الاسم غير المسمى ولكنه التسمية، ومن ثالث معروف بالحذق في صناعة الجدل والكلام يزعم أن الاسم قد يكون هو المسمى كقولنا لله تعالى: إنه ذات وموجود، وقد يكون غير المسمى كقولنا: إنه خالق ورازق، فإنهما يدلان على الخلق والرزق وهما غيره. وقد يكون بحيث لا يقال إنه المسمى ولا هو غيره كقولنا: إنه عالم وقادر، فإنهما يدلان على العلم والقدرة، وصفات الله لا يقال إنها هي الله تعالى ولا إنها غيره. والخلاف يرجع إلى أمرين أحدهما أن الاسم هل هو التسمية أم لا والثاني أن الاسم هل هو المسمى أم لا "(54).

فالقول الذي يرتضيه القرطبي ويطمئن إليه وهو "الذي يذهب إليه أهل الحق أن الاسم هو المسمى أو صفه له تتعلق به، وأنه غير التسمية"(55).

لذا نجده يقوم بتوجيه قراءة عامر في قوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾(56)، حتى يعضد القول الذي ارتضاه، حيث قال: وقرأ عامر "ذو الجلال" بالواو وجعله وصفا للاسم وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى(57).

المنارة للاستشارات

كما ذكر في معرض تفسيره أن في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾[58]، ما يوضح ويدلل على اختياره أن الاسم هو المسمى، فالمعنى من الآية: "نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكره محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية والأولى أن يكون الاسم هو المسمى"[59].

ب-أثر القراءات في أسماء الله تعالى:

منهج القرطبي في الأسماء: "أنه لا يجوز أن يسمى الله تعالى ويوصف إلا بما سمى به نفسه لخلقه ووصف، أو سماه به رسوله ووصف، وأجمع المسلمون عليه، فإذا صح الاسم أو الصفة من طريق السمع فالواجب علينا الانقياد والتسليم له، وكان له من ذلك ما يليق بجلاله"[60]، وهذا هو منهج الإمام الأشعري في كتابه اللمع[61].

ومعناه أن ليس هناك وسيلة لمعرفة أسماء الله عز وجل إلا ما أخبر به عز وجل عن نفسه، أو ما أثبته له رسوله ﷺ أو إجماع الأمة عليه، أي أن الله يسمى بما سمى به نفسه في كتبه المنزلة، وبما سماه به أعلم الناس به وهم الأنبياء عليهم السلام، فلا دخل للقياس فيها فيندفع الإشكال.

وغالب الأشاعرة على أن أسماء الله عز وجل توقيفية، وقاعدتهم في ذلك ما ذكره الإمام الجويني: "ما ورد الشرع بإطلاقه أطلقناه، وما منع الشرع من إطلاقه منعناه، وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم، فإن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد السمع"[62].

ويذهب القرطبي إلى أن البارئ اسم من أسماء الله تعالى، "نطق به القرآن، وجاء في السنة، وأجمعت عليه الأمة، والبارئ المبدع المخترع"[63]، وقد اختار القرطبي مذهب من همز من القراء، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

المنارة للاستشارات

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[64] قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين، من قولهم: برأ الله الخلق، وهو البارئ الخالق، وقال: من قبل أن نبرأها. الباقون بغير همز، وشد الياء عوضا منه. قال الفراء: إن أخذت البرية من البرى، وهو التراب، فأصله غير الهمز، تقول منه: براه الله يبرؤه بروا، أي خلقه. قال القشيري: ومن قال البرية من البرى، وهو التراب، قال: لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البرية: من بريت القلم، أي قدرته، فتدخل فيه الملائكة. ولكنه قول ضعيف، لأنه يجب منه تخطئة من همز[65].

واختار القرطبي اسم الله القيوم من آية الكرسي، "وأصل قيوم قيووم اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، ولا يكون قيوم فعولا، لأنه من الواو فكان يكون قيووما"[66]. ولم يلتفت إلى قراءة من قرأ القيام بالألف وهي قراءة ابن مسعود والأعمش والنخعي، ورويت كذلك عن عمر[67].

ج-أثر القراءات في اثبات الصفات:

تكلم العلماء في الاسم والمسمى والتسمية والوصف والموصوف والصفة[68]، ولا شك أن هناك علاقة بين الأسماء والصفات، فأسماء الله عز وجل لها معاني وهي صفات كماله عز وجل، حتى قال الإمام البيهقي: "فلله عز اسمه أسماء وصفات، وأسماؤه صفاته وصفاته أوصافه"[69].

فالصفات عند الأشاعرة "هي الشيء الذي يوجد بالموصوف أو يكون له، ويكسبه الوصف الذي هو النعت الذي يصدر عن الصفة"[70]، وأما الوصف "فهو قول الواصف لله تعالى ولغيره بأنه عالم حي قادر منعم متفضل"[71].

المنارة للاستشارات

وقد اختلف المتكلمون في إثبات الصفات ونفيها، فذهب الأشاعرة "إلى أن له صفات زائدة، فهو عالم بعلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، وعلى هذا، وذهب الفلاسفة والشيعة إلى نفيها مع خلاف للشيعة في إطلاق الأسماء الحسنى عليه"[72].

أما المعتزلة فيجمعون القول: "بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة. وهي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية"[73].

وبيان ذلك ما جاء في قوله تعالى: ولو ترى، يقول القرطبي: والمعنى: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب لأن القوة لله لعلمت مبلغهم من النكال ولاستعظمت ما حل بهم. ودخلت "إذ" وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريبا للأمر وتصحيحا لوقوعه.

وقرأ ابن عامر وحده" يرون" بضم الياء، والباقون بفتحها. وقرأ الحسن ويعقوب وشيبة وسلام وأبو جعفر" إن القوة، وإن الله" بكسر الهمزة فيهما على الاستئناف أو على تقدير القول، أي ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب يقولون إن القوة لله. وثبت بنص هذه الآية القوة لله، بخلاف قول المعتزلة في نفيهم معاني الصفات القديمة، تعالى الله عن قولهم[74].

فاستدل القرطبي بعدد من القراءات وقام بتوجيهها لتأكيد اختياراته الأشعرية وإثبات صفة القوة لله عز وجل.

المنارة للاستشارات

أما المعتزلة كالكعبي وغيره، فيرون أن ليس لله في الحقيقة صفة وإنما هو وصف الواصف له، أو تسمية المسمى[75]، وهذا يوجب أن لا يكون لمعبودهم اسم ولا صفة[76].

فمن زعم أن الاسم غير المسمى وأن لا مدلول للتسميات إلا الذات، نفي الصفات كالمعتزلة وغيرهم، ومن أثبت للتسميات مدلولات هي أوصاف الذات كالأشاعرة، واعتبروا الصفات شيئا زائدا عن الذات، كما أن هناك فريقا ينفي الأسماء والصفات جميعاً وهم الجهمية.

د-أثر القراءات في مسألة الصفات الخبرية:

يذهب الأشاعرة إلى تأويل كل الصفات الفعلية الخبرية، فقد أولوا الضحك والمحبة والحياء والمكر وغيرها، "فأولوا صفة الرضا، وقالوا إن المراد منها إرادة الثواب والإنعام، كما أولوا صفة الغضب، وقالوا هي إرادة العقاب والانتقام"[77]. وبينوا أن حقائقها وظواهرها على الله محال.

ووضع الرازي قانونا كليا للتعامل مع هذه الصفات، وهو "أن كل صفة تثبت للعبد مما يختص بالأجسام، إذا وصف الله تعالى بذلك فهو محمول على نهايات الأغراض، لا على بدايات الأعراض. مثاله: أن الحياء حالة تحصل للإنسان، ولها مبدأ ونهاية. أما البداية فيها فهو التغير الجسماني، الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إلى القبيح. وأما النهاية فهي أن يترك الإنسان ذلك الفعل، فإذا ورد الحياء في حق الله تعالى، فليس المراد منه: ذلك اللحوق الذي هو مبدأ الحياء وتقدمته. بل المراد هو ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته. وكذلك الغضب له مبدأ وهو غليان دم القلب وشهوة الانتقام، وله غاية وهو إيصال العقاب إلى المغضوب عليه. فإذا وصفنا الله تعالى

المنارة للاستشارات

بالغضب، فليس المراد هو ذلك المبدأ-أعني غليان دم القلب وشهوة الانتقام- بل المراد تلك النهاية، وهي إنزال العقاب، فهذا هو القانون"[78].

وقد سلك القرطبي مسلك الأشاعرة فحمل الخداع والاستهزاء والمكر من الله عز وجل على المجازاة والعقوبة والانتقام، يقول القرطبي: "والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أولياءه ورسله"[79]، وقال أيضا: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾، أي ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الذنب[80].

ويظهر هذا الاختيار عند قوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴾[81]، فقد اختلف القراء في الضمير من عجبت، فمنهم من أثبته لله عز وجل ومنهم من أنكر ذلك، وهو ما نقله القرطبي بقوله: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم، أي بل عجبت مما نزل عليك من القرآن وهم يسخرون به. وهي قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال: إن الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. وقيل: المعنى بل عجبت من إنكارهم للبعث. وقرأ الكوفيون إلا عاصما بضم التاء. واختارها أبو عبيد والفراء، وهي مروية عن علي وابن مسعود، رواه شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ: " بل عجبت" بضم التاء. ويروى عن ابن عباس. قال الفراء في قوله سبحانه:" بل عجبت ويسخرون" قرأها الناس بنصب التاء ورفعها، والرفع أحب إلي، لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس. وقال أبو زكريا القراء: العجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد، وكذلك قوله:"" الله يستهزئ بهم" ليس ذلك من الله كمعناه من العباد. وفي هذا بيان الكسر لقول شريح حيث أنكر القراءة بها. روى جرير والأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قرأها عبد

المنارة للاستشارات

الله يعني ابن مسعود "بل عجبت ويسخرون" قال شريح: إن الله لا يعجب من شي إنما يعجب من لا يعلم. قال الأعمش فذكرته لإبراهيم فقال: إن شريحا كان يعجبه رأيه، إن عبد الله كان أعلم من شريح وكان يقرؤها عبد الله: "بل عجبت". قال الهروي: وقال بعض الأئمة: معنى قوله: "بل عجبت" بل جازيتهم على عجبهم، لأن الله تعالى أخبر عنهم في غير موضع بالتعجب من الحق، فقال: "وعجبوا أن جاءهم منذر منهم"، وقال: "إن هذا لشيء عجاب"، "أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم"، فقال تعالى: "بل عجبت" بل جازيتهم على التعجب. قلت: وهذا تمام معنى قول الفراء واختاره البيهقي.

ومن خلال هذه المناقشة المستفيضة يظهر أثر القراءات في القول بالصفات الخبرية، فالعلماء يتفقون على إثبات صفة التعجب لله تعالى كما جاءت على لسانه في القرآن الكريم، مع تنزيه الباري تعالى عن صفات المحدثين التي تدل على طرو العلم بعد الجهل مما يولد تعجبا، وهذا في حقه سبحانه وتعالى محال.

هـ-أثر القراءات في مسألة أفعال الله تعالى:

تعد هذه المسألة "من أهم وأخطر مسائل القدر، ولقد زلت فيها أقدام، وحارت عقول وأفهام؛ فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله عز وجل مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا في ذلك إلى طرفين وواسطة"(82):

أما الطرف الأول فهم الجبرية، الذين يذهبون إلى نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، وأن لا قدرة للعبد في شيء منها، وإنما هو مضطر إلى جميعها، ويذهب الجهم إلى أن "الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، وتنسب إليه الأفعال مجازا كما تنسب إلى الجمادات،

المنارة للاستشارات

كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرك الحجر، وطلعت الشمس وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت، واهتزت الأرض وأنبتت، إلى غير ذلك والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر. قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا كان جبرا "[83].

ويترتب عن هذا القول "أن الله تعالى هو الذي خذل الكافر وأضله، وطبع على قلبه ولم ينظر له، وخلق كفره ولم يصلحه، ولو نظر له وأصلحه لكان صالحا"[84]. كما أن القول بالجبر فيه محو للتكاليف وهدم للشريعة وإبطال لحكم العقل، ولا يمكن أن يتصور دور العقل والإنسان مسلوب الحرية[85].

وعلى الطرف النقيض يقف القدرية من المعتزلة وغيرهم موقفا يخالف الجبرية، وذهبوا إلى أن أفعال العباد محدثة، فعلها فاعلوها، ولم يخلقها الله عز وجل[86].

فالمعتزلة يعتبرون الإنسان قادرا على أفعاله مختارا لها، وله إرادة وقدرة مستقلة عن إرادة الله وقدرته، يقول القاضي عبد الجبار: "اتفق كل أهل التوحيد، على أن أفعال العباد من تصرفهم، وقيامهم، وقعودهم، حادثة من جهتهم، وأن الله جل وعز أقدرهم على ذلك، ولا فاعل ولا محدث سواهم، وأن من قال: إن الله سبحانه وتعالى خالقها ومحدثها فقد عظم خطؤه"[87].

أما الأشاعرة فقد وقفوا موقفا وسطا، وردوا القول بالجبر لما فيه من سلب قدرة الإنسان وحريته وضرب للتكليف. كما رفضوا مذهب المعتزلة، "وبشكل أعنف، لما رأوا فيه من مبالغة في إعطاء الحرية للإنسان، حرية جعلت منه الخالق والمخترع لأفعاله"[88].

ويرتكز موقف الأشاعرة من قضية خلق أفعال العباد على مسألتين هامتين، التسليم بأن الله عز وجل خالق كل شيء، مع التمييز بين الأفعال الاضطرارية والاختيارية، وأن للعبد قدرة حادثة، تجعله مختار لا مجبورا، وأن قدرة العبد لا تستقل بالفعل.

المنارة للاستشارات

والقدرة التي أتبثها الأشاعرة للعبد مهمتها كسب الفعل، وقدرة الله لها تأثير في خلقه، وهذا هو الكسب الذي جاء به الإمام الأشعري، وقرر مبادئه في كتابه اللمع، ويعني " أن الله يهب الإنسان قدرة عند مباشرته الفعل يحدث الله الفعل عندها لا بها، فيكون الفعل الواقع من العبد من خلق الله ومن كسب العبد، أي إن إرادة العبد قد توجهت لمباشرة الفعل، وهذا التوجه يسمى كسبا، وهو مناط التكليف والثواب والعقاب، أما القدرة الحادثة التي يخلقها الله في العبد عند إرادته الفعل فلا تأثير لها في وجود الفعل، لأن الفعل يقع بقدرة الله وحدها"(89).

والقرطبي الذي سلك مسلك الأشاعرة لا ينكر أن الله عز وجل خالق أفعال العباد، غير أنه يثبت للعبد قدرة واختيارا مخافة إلغاء التكليف، وانتفاء الحكمة من الثواب والعقاب(90)، " فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة"(91).

ويذهب القرطبي إلى أن الله عز وجل خالق كل شيء حقيقة وإنما تنسب إلى الخلق مجازا، فعند قوله تعالى: قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، يذكر القراءات التي تؤكد موقفه من هذه المسألة ويوجهها توجيها يوافق أراءه الأشعرية، "جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وقرأ ورش عن نافع " ليهب لك" على معنى أرسلني الله ليهب لك. وقيل: معنى "لأهب" بالهمز محمول على المعنى، أي قال: أرسلته لأهب لك. ويحتمل "ليهب" بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة"(92).

المنارة للاستشارات

وكذا عند قوله تعالى: لكل وجهة، قال القرطبي: "وقرأ ابن عباس وابن عامر "مولاها" على ما لم يسم فاعله. والضمير على هذه القراءة لواحد، أي ولكل واحد من الناس قبلة، الواحد مولاها أي مصروف إليها"(93).

فظاهر الآية فيها استلاب التكليف من العبد، غير أن القراءة الثانية دفعت هذا الظاهر وأزالت الإشكال، وأثبتت للعبد قدرة واستطاعة وكسبا.

خاتمة:

من خلال مناقشة محاور هذه الورقة العلمية توصلت إلى مجموعة من النتائج والخلاصات أجملها في ما يلي:

- ✓ يعد القرطبي من أهم أعلام الغرب الإسلامي وكتابه الجامع لأحكام القرآن موسوعة علمية في التفسير وأحكام القرآن.
- ✓ اعتمد القرطبي بفضل تكوينه العلمي في فن القراءات باستنباط أحكام علمية ونكت فقهية وعقدية من خلال توجيه هذه القراءات.
- ✓ ينقل القرطبي عن أهم المصادر القرائية مما يدل على سعة ووفور اطلاعه.
- ✓ يقوم القرطبي بتوجيه القراءات والموازنة والترجيح بينها، والتنصيص على شذوذها.
- ✓ توجيه القرطبي للقراءات على المعاني اللغوية، ووفق اختياراته العقدية الأشعرية.

قائمة المصادر والمراجع:

الأزدي (المتوفى: 321هـ)، جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط الأولى 1987م.

❖ **الإسفراييني:** التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، كمال يوسف الحوت، عالم الكتب لبنان، ط الأولى: 1403هـ.

المنارة للاستشارات

❖ **الأشعري أبو الحسن** ، اللمع في الرد على أهل البدع والزيغ، ضبطه وصححه: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى: 2000م.

❖ **الإيجي**، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب والطباعة، د م، دت.

❖ **الباقلاني (المتوفى: 304هـ)**، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط الأولى: 2005م.

❖ **البختي جمال**، عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية لعلال منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط الأولى 2005م.

❖ **الجويني (المتوفى: 478هـ)**، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، تحقيق محمد يوسف موسى، مكتبة الخانجي مصر، طبعة 1950م.

❖ **ابن حجر العسقلاني 852هـ**، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، دت.

❖ **الداودي 945هـ**، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية – بيروت، دت.

❖ **رضا كحالة 1408هـ**، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي بيروت، دت.

❖ **الزركشي (المتوفى: 794هـ)**، تشنيف المسامع بجمع الجوامع ، دراسة وتحقيق: سيد عبد العزيز وعبد الله ربيع، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، ط الأولى1418 هـ.

❖ **الزركلي 1326هـ**، الأعلام ، دار العلم للملايين ط: الخامسة عشر: 2002 م.

❖ **السيوطي (المتوفى: 911هـ)**، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية لبنان، دت.

❖ **الشهرستاني**، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت، ط الثانية: 1975م.

❖ **الصفدي 764هـ**، الوافي بالوفيات تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث بيروت، ط 1420هـ.

المنارة للاستشارات

❖ **طاش كبري زاده**، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1986م.

❖ **ابن عبد الملك المراكشي ت 703هـ**، الذيل والتكملة، تحقيق: إحسان عباس وعبد الهادي بنشريفة، دار الغرب الإسلامي تونس، ط الأولى: 2012م.

❖ **الغامدي**، البيهقي وموقفه من الإلهيات، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط الثانية: 1423هـ.

❖ **الغزالي ت505هـ**، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، الناشر: الجفان والجابي قبرص، ط الأولى: 1407هـ.

❖ **ابن فرحون 799هـ** ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب دار التراث للطبع والنشر، القاهرة دت.

❖ **القاضي عبد الجبار**، المغني في أبواب التوحيد والعدل تحقيق جماعة من المحققين بإشراف طه حسين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دت.

❖ **القرطبي**: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته، تحقيق الشيخ عرفان بن سليم، المكتبة العصرية بيروت، ط الأولى: 2005م.

❖ **القرطبي**: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق ودراسة: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى: 1425 هـ.

❖ **القرطبي**، الجامع لأحكام القرآن تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية القاهرة ط: الثانية، 1384هـ.

❖ **القصبي**، القرطبي ومنهجه في التفسير ، المركز العربي للثقافة والعلوم بيروت لبنان، دت.

❖ **الماتربدي (المتوفى: 333هـ)**، التوحيد، تحقيق فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية الإسكندرية، دت.

❖ **محمد با كريم**، وسطية أهل السنة بين الفرق، دار الراية للنشر والتوزيع،د م، ط الأولى 1415هـ.

المنارة للاستشارات

❖ **معلومي عبد المجيد**، دور العقيدة الأشعرية في تثبيت مبدأ الوسطية، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، ط الأولى 2013م.

❖ **معلومي عبد المجيد**، منهج علماء الأشاعرة في تقرير العقيدة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط الأولى: 1986م.

❖ **المقري (المتوفى: 1041هـ)**، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط الأولى 1968م.

❖ **ابن ناصر الدين الدمشقي 842هـ**، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم ، مؤسسة الرسالة بيروت ط الأولى: 1993م.

❖ **النشار سامي**، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف القاهرة، ط السابعة 1977م.

الحواشي والإحالات:

(1)- محمد بن أبي بكر بن فرح بفتح الفاء وراء ساكنة وحاء مهملة. [الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ت 703هـ، تحقيق: إحسان عباس وعبد الهادي بنشريفة، دار الغرب الإسلامي تونس، ط الأولى: 2012م: 494/3، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم لابن ناصر الدين الدمشقي 842هـ، مؤسسة الرسالة بيروت ط الأولى: 1993م: 65/7، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني 852ه تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان: 1072/3]، الوافي بالوفيات للصفدي 764هـ تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث بيروت، ط 1420ه: 87/2، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون 799هـ دار التراث للطبع والنشر، القاهرة بدون: 308/2، طبقات المفسرين للداودي 945هـ، دار الكتب العلمية - بيروت: 69/2، الأعلام للزركلي 1326هـ، دار العلم للملايين ط: الخامسة عشر: 2002 م: 322/5، معجم المؤلفين لرضا كحالة 1408ه، دار إحياء التراث العربي بيروت: 239/8.

(2)-التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي: 418/1.

(3)-نفسه: 448/1.

المنارة للاستشارات

(4)- طبقات المفسرين للداودي: 69/2. وانظر كذلك مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1986م: 93/2.

(5)- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون: 308/2.

(6)- المنة: القوة، وهي عند بعضهم من الأضداد. يقولون: رجل ذو منة إذا كان قويا، وحبل منين إذا كان ضعيفا.[جمهرة اللغة للأزدي (المتوفى: 321هـ)، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت، ط الأولى 1987م: باب منه: 992/2].

(7)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 7/1.

(8) - نفح الطيب للمقري (المتوفى: 1041هـ): 221/1.

(9)- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي(المتوفى: 911هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية لبنان،: 383/1.

(10)- كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك: 494/3.

(11) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 272/4.

(12)- من هذه المواضع قوله: سمعت شيخنا الأستاذ المقرئ النحوي المحدث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجة رحمة الله يقول في تأويل قوله عليه السلام: (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) إنهم العلماء. [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 297/8].

(13)- الوافي بالوفيات للصفدي: 175/22.

(14)- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقري التلمساني (المتوفى: 1041هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط الأولى 1968م : 393/5.

(15) – سورة آل عمران: 13.

(16) – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 25/4.

(17) – سورة الأنعام: 125.

(18)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 81/7.

(19) – سورة المائدة: 47.

(20) – سورة المائدة: 49.

المنارة للاستشارات

(21)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 209/6.
(22) - سورة البقرة: 51.
(23) - الجامع لأحكام القرآن: 397/1.
(24) - سورة البقرة: 106.
(25) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 67/2.
(26) - سورة البقرة: 222.
(27) - الجامع لأحكام القرآن: 88/2.
(28) - نفسه: 39/8.
(29) - سورة النور: 4.
(30) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 178/12.
(31) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 185/1.
(32) - سورة البقرة: 36.
(33) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 311/1.
(34)- نفسه: 33/7.
(35)- سورة البقرة: 125.
(36)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 111/2.
(37)- سورة البقرة: 240.
(38)- سورة البلد: 14-15.
(39)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 227/3.
(40)- سورة البقرة: 213.
(41) - سورة الجاثية: 29.
(42)- 32/3.
(43)- سورة الأعراف: 150.
(44) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 290/7.
(45)- سورة هود: 42.
(46)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 47/9.

المنارة للاستشارات

(47)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 65/13.

(48)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 146/1.

(49)- سورة البقرة: 119.

(50)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 92/2-93.

(51)- القرطبي ومنهجه في التفسير للقصبي ص: 54.

(52) - شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للالائكي: 206/1.

(53) - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته للقرطبي ص: 45.

(54) - المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى للغزالي ص:24.

(55) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 326/7.

(56) - سورة الرحمن:78.

(57) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 193/17.

(58) - سورة الأعلى:1.

(59) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 14/20.

(60) - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته للقرطبي ص: 15.

(61) - يقول الأشعري: فالأسماء ليست إلينا، ولا يجوز أن نسمي الله تعالى باسم لم يُسَمِّ به نفسه ولا سماه به رسوله، ولا أجمع المسلمون عليه ولا على معناه. [اللمع في الرد على أهل البدع والزيغ لأبي الحسن الأشعري ص: 38].

(62)- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني ص: 143.

(63)- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته للقرطبي ص: 338.

(64)- سورة البينة: 6.

(65)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 145/20.

(66)- الأسنى الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته للقرطبي ص: 396.

(67)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 272/3.

(68)- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته للقرطبي: 33/1.

(69)- البيهقي وموقفه من الإلهيات للغامدي ص: 142.

(70) - التمهيد للباقلاني ص: 244.

المنارة للاستشارات

(71) – نفسه.

(72) – المواقف في علم الكلام للإيجي ص: 279.

(73)– الملل والنحل للشهرستاني: 1/44-45.

(74)– الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 2/304.

(75)– التوحيد للماتريدي (المتوفى: 333هـ)، تحقيق فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية الإسكندرية، بدون ص: 50.

(76)– التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين للإسفراني ص: 63.

(77)– أنظر دور العقيدة الأشعرية في تثبيت مبدأ الوسطية لعبد المجيد معلومي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، ط الأولى 2013م، ص: 115.

(78)– أساس التقديس للرازي ص: 191– 192.

(79)– الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 5/422.

(80)– نفسه: 1/207.

(81)– سورة الصافات: 12.

(82)– وسطية أهل السنة بين الفرق محمد با كريم، دار الراية للنشر والتوزيع، ط الأولى 1415هـ، ص: 374.

(83)– الملل والنحل للشهرستاني: 1/87.

(84)– عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية لعلال جمال البختي ص: 439.

(85)– نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام لسامي النشار: 1/343.

(86)– الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم: 3/32.

(87)– المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار: 8/3.

(88) – عثمان السلاجي ومذهبيته الأشعرية لعلال جمال البختي ص: 440.

(89)– منهج علماء الأشاعرة في تقرير العقيدة لعبد المجيد معلومي ص: 209.

(90)– يقول الزركشي: ولا بد من القول بالكسب تصحيحا للتكليف والثواب والعقاب لامتناع الجمع بين اعتقاد الجبر المحض والتكليف وحاصله أن الأفعال تثبت للخلق شرعا لإقامة الحجة عليهم، ولا فاعل في الحقيقة إلا الله تعالى فمراعاة الظاهر شريعة ومراعاة الباطن حقيقة وفي هذا المذهب جمع بينهما. [تشنيف المسامع بجمع الجوامع الزركشي الشافعي (المتوفى: 794هـ)، دراسة

المنارة للاستشارات

وتحقيق: سيد عبد العزيز وعبد الله ربيع، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، ط الأولى 1418 هـ: 964/4]

(91)- نفسه: 148/17.

(92) - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 91/11.

(93) -نفسه: 164/2.

The cognitive complementarity between the sciences of Quran and the creed lesson for Ulams of the islamic west

Al – Qurtubi aproach to the explamation of The Quranic Qurat and its impact on his creed choices.

Dr. Hamid Ben Ahmmed Ait Al-hyane

Faculty of Letters and Human Sciences- Cadi Ayyad University

hamidaitoulahyane@gmail.com

Abstract:

The title of this article is : Al – Qurtubi aproach to the explamation of The Quranic Qurat and its impact on his creed choices." It is a study based on two complementary axes.

A theoretical axis that discusses Al-Qurtubi's approach to guiding Qurat through his interpretation, An applied axis highlights the impact of this on Al-Qurtubi's his creed choices

This study seeks to show the aspects of knowledge integration between the sciences of the Qur'an and the creed lesson of Islamic for the Western Ulams.

Key words:

Quranic sciences; creed lesson; Qurat guidance; Islamic West.

المنارة للاستشارات